خطبة صلاة الجمعة 9/ 9/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم التعصب والتشدد)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا﴾ [الفجر: 15 – 17].

قال المفسرون: (ردَّ اللهُ على من ظنّ أنّ سعة الرزق إكرام وأنّ الفقر إهانة، فأخبر أنّ الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته) فصحّحت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«ما تعدُّون الصُّرَعةَ فيكم؟»** قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **«ليس بذاك، ولكنه الذي يَملِكُ نَفْسَه عند الغضب»** وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه».**

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجّه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالاً وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضنّ به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة الخامسة من سلسلة خطب عنوانها: "مفاهيم تحتاج إلى تصحيح" جاءت لتوضيح وتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم التعصب والتشدد**

لو رأيت طبيباً يخرج من جلسة في المؤتمر الطبي ليؤدي صلاة المغرب ويعود، فهل تقول عنه متعصب أو متشدد أو ملتزم؟!

لو طلب زوج من زوجته أن تقدم الضيافة لرفاقه الشباب الزائرين فرفضت حفاظاً على أوامر دينها، فهل نقول عنها متعصبة أو متشددة أو ملتزمة؟!

طلب إليه معلمه أن ينزل إلى دائرة عامة لاستصدار أوراق رسمية وأعطاه تكاليف المعاملة ومعها مثلها من المال وقال له "رشرش" وأنت تسير بين المكاتب لتيسير المعاملة، فأخبره أنه لا يريد التعامل بالرشا، فهل هذا الأجير متعصب أو متشدد أو ملتزم؟!

في ليلة رأس السنة قررت العائلة مجتمعة الذهاب لواحد من فنادق النجوم الخمسة لحضور حفل رأس السنة، ولكن أحد الأبناء السالكين في المساجد اعتذر إلى أبيه لأنه لا يريد الحضور في تلك الأجواء حفاظاً على دينه، فهل يقول الأب عن ابنه هذا إنه متعصب أو متشدد أو ملتزم؟!

بينما كان يسمر مع أصحابه في بيت أحدهم قربوا خمراً ليشربه، فامتنع، فقالوا له لا تكن متعصباً متشدداً، فخشية أن يصفوه بهذا سايرهم وتناول القليل منه! فهل امتناعه عن شرب الخمر تعصب أو تشدد أو التزام؟!

وهل تناوله للقليل توسط واعتدال أو تفلت من أمر الشريعة ونهيها؟!

تجتمع العائلة الكبيرة كل أسبوعين في بيت الجدة من الصباح إلى المساء، ولما جاءت الكنة الجديدة سحبت النساء ليجلسن وحدهن وبقي الرجال وحدهم، فهل تسمي الجدة هذه الكنة الجديدة التي فرقت أفراد العائلة في الجلوس متشددة أو متعصبة أو ملتزمة؟

عمل شاب عند متعهد بناء محاسباً، بعد حين طلب المتعهد من الشاب تغيير بعض الحسابات لتقديمها للمساهمين فيزيد في كمية المواد ويزيد في المساحات، ولما اعتذر الشاب عن ذلك لأنه غش للمساهمين واعتداء على أموالهم هدده المتعهد بالفصل من العمل إذا لم يفعل، فامتنع الشاب وفُصِلَ من العمل

فهل يقول أصحاب هذا الشاب عن صديقهم إنه متعصب أو متشدد أو ملتزم؟!

أيها الإخوة:

التعصب هو التمسك بما قام الدليل على بطلانه، والتشدد هو الغلو في الشيء والمبالغة فيه، أما الالتزام فهو التمسك بما قام الدليل على صحته.

وقد ذم القرآن والسنة المتعصبين والمتشددين، على حين أنهما مدحا المتمسكين بتعاليم الدين الملتزمين بها، قال الله تعالى في شأن تعصب المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

إنهم يتعصبون لما قام الدليل على بطلانه وينتصرون به.

وقال صلى الله عليه وسلم في ذم الغلو والتشدد: «**إياكم والغلوَ في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» (النسائي)، وقال صلى الله عيه وسلم: «**هلك المتنطعون**» (مسلم) والتنطع والغلو في الشيء هو التشدد.

وقال تعالى في حق المتمسكين بتعاليم الدين الملتزمين بها: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170].

جاء في تفسير القرطبي: (يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ: فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه فبذلك يُمْدَحُون، فالتمسك بكتاب الله والدِّين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك).

في نوادر الأدب قصة تقول: لقي عالم اللغة العربية سيبويه ابنَ صديق له، فسلَّم عليه وسأله: ما فعل أبوك بحمارِه، فقال الشاب: باعِهِ!

قال سيبويه: أخطأت يا ولدي، قل: باعَهُ.

قال الشاب: لماذا؟ قلتَ أنت: بحمارِه، ولا ترضى مني أن أقول: باعِهِ.

قال: يا ولدي الباء عندي حرف جر، لذلك قلتُ: بحمارِهِ، اسم مجرور بالباء، أما الباء عندك فمن أصل الكلمة، باعه.

قال الشاب: ولماذا باؤك تجرُّ، وبائي لا تجرُّ؟!

فأنهى سيبويه الحديث ومضى.

فهذا من التعصب المذموم الذي هو التمسك بالخطأ، التمسك بما قام الدليل على بطلانه.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، قالوا: فأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**.

هذا من التشديد المنهي عنه في الشريعة لأنه يخرج الأمر عن وسطيته واعتداله ويقطع بالسالك سيره إذ لا يستطيعه على الدوام.

روى ابن كثير في السيرة: (مشت رجالات قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

ثم انصرفوا عنه.

فعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهُم ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه.

فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا كذا وكذا، للذي قالوا له، فأبقِ علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

قال: فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بدو وأنه خاذله ومُسْلِمُه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك فيه»**.

قال: ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام!

فقالةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم التزام لا تعصب، وتمسك بالحق لا تشدد.

فالحاصل أيها الإخوة:

التعصب تمسك بالباطل بينما الالتزام تمسك بالحق، التشدد غلو في الأمر بينما الالتزام اعتصام بالخير،

التعصب مذموم والتشدد ممقوت والالتزام محمود مشكور.

التعصب والتشدد نهت عنهما الشريعة، ولكنها أمرت بالتمسك بأوامرها والالتزام بنهجها ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43] ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: 87].

وبناء على كل ما مضى فإن الطبيب الذي يخرج من جلسة المؤتمر ليؤدي صلاة المغرب ويعود، والزوجة والكنة اللتان تأبيان مخالطة الرجال، والأجير الرافض للتعامل بالرشا، والشاب المعتذر عن حضور حفلة رأس السنة حفاظاً على دينه، والصديق التارك لشرب الخمر، والمحاسب الرافض تغيير الحسابات، ولو أوصله ذلك إلى الطرد من العمل، كل منهم متمسك بما قام الدليل على صحته ملتزم بأوامر ربه، صَدَقَ ما عاهَدَ الله عليه وسيصدقه الله تعالى، وهم أبعد ما يكون عن التعصب الأعمى والتشدد المقيت.

أيها الإخوة:

من الأخطاء التي وقعت في تصور بعض الناس أن خلط بين التعصب والالتزام، أو بين التشدد والالتزام، فاعتقد أن التمسك بالدين تعصباً، وأن المحافظة على تعاليم الشرع تشدداً.

فنتج عن هذا الفهم الخاطئ أن تفلت صاحبُه من أوامر الدين ونواهيه خوفاً من أن يُنْعَتَ بالتعصب والتشدد، ودعا الملتزمين لترك التزامهم ظناً منه أن الالتزام تشدد وتعصب، وربما أطاعه بعضهم فحمل وزراً مع وزره.

والصواب أن التعصب والتشدد نهت عنهما الشريعة؛ لأنهما يؤذيان الأفراد والمجتمعات، وينقصان مكانة المرء، بينما دعت الشريعة للتمسك بالحق والالتزام به لأنه يقوي الأفراد والمجتمعات ويدعو إلى إكبار صاحبه.

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

الخلط بين التعصب والالتزام أو بين التشدد والالتزام مفهوم خاطئ، والصواب في مفهوم التعصب والتشدد والالتزام الآتي:

1- التعصب هو التمسك بما قام الدليل على بطلانه، وهو مذموم شرعاً وعقلاً.

2- التشدد هو الغلو في الشيء والمبالغة فيه، وهو مذموم عقلاً وشرعاً.

3- الالتزام فهو التمسك بما قام الدليل على صحته، وهو محمود عقلاً وشرعاً.

4- الالتزام بتعاليم الدين والتمسك بها قوة يُحترَم صاحبها، بينما التعصب والتشدد ضعف يُلام فاعلهما. والله أعلم

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات. ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم التدين، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين